# بقية حية

## للكاتب الروسي تورجنيف

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

« كان تورجنيف خلال صيد يفتش عن ملجأ من المطر في مزرعة لأمه . فهبط كوخاً مهجوراً ووجد خصاً في زاوية من زواياه سرير خشبي يرقد عليه شكل إنساني صغير »

دنوت ولكن الدهشة سمرتني في مكاني . إن إزائي كائناً حياً ، ولكن ما هو هذا الكائن ؟

وجه غاض منه ماء الحياة ، وغشيه لون برزي كأنما يرى فيه الناظر صورة قديمة قديمة ، وأنف دق مارنه حتى أشبه حد المدية ، وشفتان دقيقتان نحيفتان لا تكادان تحسان ، وعينان لامعتان ، وأسنان بيضاء ، وبعض غدائر شقراء ناست تحت النقاب ، وفي أطواء الفضاء تتحرك ببطء أصابع يدين ، ووجه لا يسمه القبح ، وإنما هو جميل ، ولكنه غريب مؤثر ، ولكني لمحت أشد ما أثر في نفسي ما لمحته على الخدين المتصلبين صورة ابتسامة تجهد ذاتها باطلا لتظهر

— ألا تعرفني يا سيدي ؟

تردد ذلك الصوت الذي راح يردده هذا الكائن كنفخة ، تحركت به شفتان بعناء

— إنني ( لوكريا ) هل تذكرني ؟ هذه أنا التي كنت أرسل الأغاني وأثير الضحكات عند أمك !

— أأنت « لوكريا » أنت ؟ هذا مستحيل

— أنا هي بذاتها وما كان لي إلا القول والنظر كالمجذوب في هذا الوجه الأربد . وفي هاتين العينين اللامعتين الشاخصتين فيّ بدون حياة

أهذه المومياء هي ( لوكريا ) أجمل وأبهى إمائنا ، من كانت بضة الأهاب وردية اللون ترقص وتضحك وتمرح وتغني؟ لوكريا ... الرقيقة التي فتنت رفاقها ، ومن كنت أبسم لها خفية حينما كنت في السادسة عشرة

— آه يا لوكريا ماذا أصابك ؟

— إنها حادثة مروعة ، ولكن لا تخش يا سيدي ، ولا تعرك السآمة من حالي . اجلس مني قريباً على هذه الخابية لأنك لا تستطيع الإصغاء إليّ بعيداً . أي صوت لي الآن ؟ إنني جد مسرورة برؤيتك ...

( وهنا تقص عليه لوكريا قصتها ، وأنها في ساعة عرسها سقطت عن السلم وعراها هذا الشلل الذي عطل حركتها . وقد جربوا باطلا أن يجدوا لها الدواء . وأخيراً قادوها إلى هذه المزرعة عند أقارب لها )

— وهل تظلين مضطجعة هكذا دائماً ؟

— نعم ! وقد غبر على سبعة أعوام ، في الصيف أمكث في هذا الخص الصغير ، وفي الشتاء يحملونني إلى مدخل هناك

— ومن عسى يعني بك ويقوم بحاجاتك ؟

— إني وجدت هنا رجالاً كرماء لا يتركونني ولكن في الغالب لا أحتاج إلى شيء . كدت أستغني

عن الطعام والشراب ، وترانى أكثر الأوقات مطروحة جانب هذا الينبوع البارد ، وأستطيع أن أبلغ مقرى وحدى ، إذ لاتزال إحدى يدى سليمة . وهنالك فتاة صغيرة يتيمة ترافقني كثيراً فليجزها الله عنى ! كانت هنا قبل لحظة ، ألم تلاقها فى طريقك ؟ إنها غادة شقراء تحمل إلى أزهاراً طالما أحبها كان عندنا من الروضة أزهار ولكنها ذوت . أما أزهار الحقول فهى جميلة أيضاً وشذاها أضوع ! ماذا تريد خيراً من ذلك ؟

— ولكن الحياة ؛ ألا تجدينها كئيبة ثقيلة عليك يا لوكريا البائسة ؟

— ما العمل ؟ لا أقدر أن أكذب . كانت أيام مصابى الأولى أياماً ثقيلة قاسية ، ثم ما لبثت أن تعودت ، وللانسان من دهره ما تعود ، وصبرت وذكرت أن آخرين — هنالك — قد يكونون أحق بالشكوى منى ...

— وكيف ذلك ؟

— هم من لا مأوى لهم مثلا ، والعميان والصم ! أما أنا — فشكراً لله — أبصر وأرى ، وأسمع ما خفت من الأصوات . ليشق خلدٌ منفذاً فى الأرض فانى أسمعه ، وأتروح كل العطور حتى الضئيل منها . لتزهر زهرة فى الحقول أو زيفونة فى البستان دون أن أخبر بذلك ، فاذا ذهبت عليها الريح أكون أول كائن يحس ما تنطوى عليه هذه الريح ! لا لا ... ولماذا ألعن حظى ؟ فهنالك آخرون حظهم أقسى ، وكذلك الأشخاص المعافون تدفع بهم ميولهم كثيراً إلى عمل الشر . أما أنا فالخطيئة تركتنى

— وهل أنت وحيدة ، وحيدة دائماً يا لوكريا ؟ كيف تعملين حتى تبرح الأفكار نفسك ؟ وعلى الأقل ألا تنامين كل الوقت ؟

— لا ياسيدى ! لاأستطيع أن أنام . حينما أريد وبدون أن أحس الآلام الكبيرة أجد فى أعماق نفسى آلاماً صماء تتمشى فى عظامى ، وهذا ما يحرمنى النوم . لا ... أظل على حالة واحدة هادئة دون تفكير . أحس أننى أحيا . إننى أتنفس ، وهذه كل حياتى . إننى أنظر وأسمع ... تدوى أسراب النحل وتسقط حمامة على السقف وتمشي ، ودجاجة تقاسم فراخها فتاتاً أو عصفورة أو فراشة تحوم . هذا يدخل السرور في نفسى ، ومن عامين طرق السنونو هذا المكان وبنى — هنا — عشاً . ما أجمل هذا !

وفى بعض خطراتى أردد صلوات ، ولكنى لا أعرف منها كثيراً ، ولكن لماذا أضجر الإله الصالح منى ؟ وماذا أطلب إليه ؟ إنه يعلم حاجاتى أكثر منى . إنه أرسل إلىّ صليبه وهذه علامة محبته لى . أعرف صلاة ( يا أبانا ) وصلاة ( السلام عليك يا مريم ) ثم أرانى أحلم فى شىء ... وهكذا الزمن يمضى

( وهنا يعرض عليها ( تورجنيف ) أن يقتادها إلى مستشفى فى المدينة ولكنها ترجوه ألا يفعل )

— إننى أعرف ياسيدى أن فيما تعمله خيراً لى ، ولكن هل فى الإمكان مساعدة الآخرين ؟ هل يمكن قراءة ما في النفوس ؟ إنما يجب على الانسان أن يجد مساعدة فى نفسه . إنك لا تؤمن به . فى بعض خطراتي وأنا مضطجعة وحدى أحس أن لا أحد على الأرض غيرى ، وأن لا أحد لى سواى ، وأشعر بأن بركة تتنزل على ... تساورنى أفكار تبعث على الدهشة

— وأية أفكار تساورك يالوكريا ؟

— يستحيل الافضاء بها ياسيدى ! لأنها مما لا يمكن التعبير عنه . ثم أنساها . ثم ... يعرض لى ذلك كسحابة تمر فوقى . وعندها أحس نداوة تغمرنى . ماهذا ! لا أعلم منه شيئاً . ولكني أقول : لو كان واحد معي لا يجد له مكاناً . لا أحس شيئاً ولا شيء إلا رزيتى

وهنا تنهدت لوكريا تنهداً شديداً ولكن صدرها لم يسعفها على التنهد أكثر من بقية أعضائها

— سيدى ! إننى هجت فيك حسن الشفقة كثيراً ، فلا تأسف علىّ كثيراً . أصغ إلى ما سأقوله لك ... إنك تعلم ، أو تذكر أننى كنت طلابة للمرح كثيراً في عهدى الأول . وتعلم كم كنت أغنى !

— وأنتِ تغنين أيضاً !

— نعم : أردد أغانىّ القديمة ، أنواعاً كثيرة من الأغانى ، أعرف منها كثيراً ولم أنسها . ولكن ألحان الرقص أصبحت لا أرددها لأن حالتى لا تساعدنى

— إنك تغنينها لنفسك بدون شك ؟

— لنفسى ... وأرددها عالياً ، قد لا أقدر أن أغنى عالياً جداً ، ولكن سامعها يفهمها . إننى حدثتك الآن عن غادة صغيرة تعودنى . لقد علمتها وأصبحت تعرف منها أربعا ، وعما قليل ترى

تنفست ( لوكريا ) والفكرة التى بدأت ترددها هذه الغادة الفانية عجزاً قد أيقظت فى نفسى هولاً لا قبل لى به . ولكنى قبل أن أنبس بكلمة تصاعدت رنة تتعالى بصعوبة لكنها صافية مستقيمة ملأت أذنى ، ثم رنة أخرى تلتها ثم أخرى ... ولوكريا لا تزال تردد ...

« فى هذه الروح ، هذه الروح ، فى هذه الروح الجميلة الخضراء » كانت تشدو دون أن تتبدل ملامح وجهها وعيناها لاتتحولان . ولكنها كانت ترسل صوتها يرن مؤثراً ، هذا الصوت الضعيف الذي كان يجهد نفسه متصاعداً كأنه خيط دخان ، متدفقاً من كل نفسها . أصبحت لا أحس ذلك الرعب ، بل حل محله شفقة عنيفة تضغط على قلبى

أنّت فجأة وقالت :

— لا أقدر ... إن قوتى تخوننى ، إن فرحى كثير برؤيتك . وهنا أغمضت عينيها ، ولمست بيدى أصابعها الباردة فنظرت إلىّ نظرة خفية ، ثم رأيت حاجبيها الكثيفين المنتهيين بخطوط ذهبية تخطوط الهيا كل القديمة قد أغلقا

كنت بالقرب من الباب عند ماذكرتنى ...

— هل تذكر ياسيدى ( وقد بدت ملامح غريبة على عينيها وشفتيها ) هل تذكر جديلتى الصغيرة ؟ كانت تهوي حتى ركبتى . غبر على ذلك عهد طويل وأصبحت لا أجزم . كانت غدائر جميلة وأنى لى أن أعمل المشط فيها في هذه الحالة ؟ فاضطررت إلى قصها ... عفواً يا سيدى ... لا أستطيع !

مرت أسابيع معدودة علمت خلالها أن لوكريا غادرت هذا الكون . وهنالك يقصون — أنها فى يوم موتها — كانت تسمع بدون انقطاع نواقيس تقرع . وكانت لوكريا تزعم أن هذا اللحن الذى تسمعه لا يقبل من الكنيسة ولكنه من العالم الأعلى وكأنها لا تجرؤ على أن تقول : من السماء

خليل هنداوى